نعمة الأنس الحياتية
فى
القرآن الكريم

دراسة موضوعية

للدكتور
عبد الفتاح محمد أحمد خضر
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بجامعتى الأزهر - والملك خالد بالسعودية

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيد الأولين والآخرين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد

فالقرآن الكريم يظل هو القرآن الذي يمد كلاً من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً .

سبب تأليف هذا البحث :

أنني سافرت وحدي إلى إحدى الدول لتدريس التفسير وعلوم القرآن تاركاً أسرتي ــ لسبب أو لآخر ــ بموطني الأم ، وخلتُ أن الأمر من السهولة بمكان بحيث إنني تجرأت وسافرت بمعزل عنهم .

ومر اليوم الأول ثم الثاني حتى تم الأسبوع ، وأنا أحسب نفسي في حياتي المعتادة ، ولكن كرب الغربة داهمني فجأة ، وشبح الانفراد هاجمني بغتة، وأصبحت أنا والعدم سواء ، فتسلل اليأس ، وتمكن الضجر من فكري ، وسألت نفسي هل أنت ابن ؟ !!

وكانت الإجابة : نعم ، فكان الرد : أين والداك ؟ فلا أجد جواباً .

ثم يأتي السؤال الثاني : هل أنت أب ؟ فأجيب بنفسي على نفسي . نعم ، وأعول ، فيكون الرد ــ إذن ــ أين أولادك ومن تعول ؟!!!

فأجد الجواب ألا أولاد .

ثم يجول في الخاطر هل أنت زوج ؟ فأجيب : نعم ، ومنذ فترة ليست بالقصيرة، فيكون الرد : وأين زوجك ؟ فتكون الإجابة موجودة، ولكن في بلاد ما وراء البحر والنهر والجبل والسهل، فكان الجو الذي ملأني ، وآثار شجوني

جعلني أفكر في سلوى لي ، ولأمثالي الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف يبغون شريف العمل ، وطيب الكسب ، فكان التفكير في كتاب الله ، إنه الكتاب الذي يقضي على المشكلات ، ويَحُلُّ المعضلات ، ويُنَفِّس عن المكروب .

فقرأت القرآن الكريم كلمة كلمة ، لعلي أجد حلاً يروي غُلتي ، ويشفي علتي ، فوجدت قلمي يسجل العشرات من الآيات بل المئات التي تقف كجيوش صادة رادة لعنوان الوحشة ، وأمراض الانفراد ، فالله أنيس كل وحيد ، وهو سبحانه حاضر ليس يغيب ، من طلبه وجده ، ومن استعان به أعانه ، ففكرت ملياً وكان هذا المختصر الذي كتبته في الأنس ، ومن أراد الإطلاع على ما هو أوسع ، فذلك كائن موجود مكتوب ــ إن شاء الله ــ عندي .

ولعلي بهذا العمل أضع حرفاً من حروف الأمل ، لدى أصحاب المشكلات الذين يعانون الوحدة والانفراد في أعمالهم ، أو من حكم عليهم لسبب أو لآخر أن يعيشوا في عزلة اختيارية أو قسرية .

وأخيراً لا يصح إلا الصحيح ، فلا يجوز لإنسان أن يعيش في عزلة أو انفراد بعيداً عن مجتمعه ولب أسرته التي عاش بين أحضانها وتربى في أكنافها ، ولا حجة له ولا عذر عندي إن قدِمَ على العيش وحده مختاراً مخلفاً وراءه زوجاً يحمل ثقيل الحمل ، وولداً يعبث دون مرب فيضل ، ووالدين قد أهمل أمرهما وخاصة في مرحلة الكبر والشيخوخة .

هذا وقد اشتمل بحثي هذا على :

مقدمة ، وأحد عشر مبحثاً ، وخاتمة .

المبحث الأول : الأنس في اللغة .

المبحث الثاني : ورود مادة الأنس في القرآن الكريم كذا ما يقاسمها .

المبحث الثالث : الزواج وتحقيق الأنس .

المبحث الرابع :الذرية الصالحة محلبة للأنس

المبحث الخامس : حاجة الإنسان في مراحل خلقه الأولى إلى الأنس .

المبحث السادس : تتسم الأنس في مرحلة المهد .

المبحث السابع : مرحلة الرضاع وصلتها بالأنس .

المبحث الثامن : حاجة الطفل إلى الأنس .

المبحث التاسع : حاجة الشباب إلى الأنس .

المبحث العاشر : حاجة الشيخوخة إلى الأنس .

المبحث الحادي عشر : حاجة الإنسان إلى الأنس بعد الوفاة .

والله أسأل أن أكون وَفَّقتُ فَوُفِّقتُ ، وكتبتُ فكتبَ اللهُ القبولَ .

والله حسبي ونعم الوكيل .

كتبه : أبو عمر

عبد الفتاح بن محمد خضر

المبحث الأول
الأنس في اللغة

من خلال رحلة في معاجم اللغة العربية التي تحت يدي لاحظت أن مادة: الأنس " الألف والنون والسين " ، تدور حول الإنسان الذي يألف ويؤلف ، وإن كانت هذه المعاجم قد تناولت طرق هذه الألفة ، وبماذا تتحقق تناولاً اختلفت فيه اختلاف تنوع يأخذ بعضه بحُجز بعض :

فالإنسان : سمي بذلك ؛ لأنه خلق خلقة لا قوام له إلا بإنس بعضهم ببعض .

والإنسان : الكائن الحي المفكر ، الراقي ذهناً وخُلقاً .

والإنسان : مكان الرؤية والإبصار من العين .

والأنس : حديث النساء ومغازلتهن .

والأنس : السكن وذهاب الوحشة .

والآنسة : الفتاة الطيبة النفس المحبوب قربها وحديثها ، يؤنس بها .

وآنَسَهُ : لاطفه ، وأزال وحشته .

والأنوس من الكلاب ضد العقور .

والأُنس : مكان البيت ، كذا التأمين والحماية لذا فالسلاح كله يسمى المؤنسات ؛ لأنه به الدفاع عن النفس وتأمين سلامتها .

ومنافع الدواب في إنسيُها : أي جانبها الأيسر الذي منه يركب ويحتلب .

والمقبل عليك من الأعضاء هو إنسي وما أدبر عنك فيسمى الوحشي .

والإنس : جماعة الناس [1]

---

(١) انظر : لسان العرب ، القاموس المحيط ، المعجم الوسيط ، المفردات ، معجم مقاييس اللغة ، مادة : " أنس " .

إذن فالمعنى اللغوي يوضح أن الإنسان يحتاج إلى الغير ، ولا يعيش وحيداً في وحشة بل يحتاج إلى الأخ والأخت ، والزوج والزوجة ، والولد ، والجار ... ويحتاج إلى السلاح الذي يدافع به عن نفسه ، والملاطفة ، والملاذ الحلال ، واللهو البريء ، والعيش في جماعة بها مقومات الحياة الآمنة الهادئة الهانئ المطمئنة ، وهو هدف هذا البحث ومغزاه الذي من أجله شرعت في مسيرته العلمية .

المبحث الثاني
ورود مادة الأنس في
القرآن الكريم كذا ما يقاسمها

أنس : وردتْ هذه المادة في القرآن الكريم حوالي ست وتسعين مرةً ، منها : تسع وثمانون تخص كلمة " إنسان " إفراداً وجمعاً ، والباقي يدور بين "آنس " ، و " استأنس " .

وهذا يدل على رسوخ مادة هذا البحث في الكتاب العزيز إذ أن القرآن جاء من أجل هذا الإنسان الذي بصلاحه واستقراه استقرار الكون ، وبفساده واضطرابه فساد الكون ، إذ هو خليفة الله في الأرض وله السيادة على ما في هذه الأرض .

ومن الألفاظ التي تقاسم الأنس :

الحب :

وقد ردت مادته في القرآن الكريم حوالي إحدى وثمانين مرة ، وهي تدور حول معان ثلاث :

محبة اللذة كمحبة الرجل المرأة ، قال تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران/١٤] .

ومحبة المنفعة كمحبة شيء ينتفع به ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . ﴾ [الصف /١٣] .

ومحبة للفضل كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض .

ومحبة العبد لإنعام ربه عليه وتفضله بغفر الذنب كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران/٣١] .

وأصل المحبة : البلوغ بالود إلى حبة القلب . [١]

---

[١] وانظر : المفردات ص ١٠٥ ، ١٥٣

الود :

والود : وردت مادته وصفاً في القرآن حوالي سبع وعشرين مرة .

منه ما هو في جانب الشر ، ومنه ما هو في جانب الخير .

والود : محبة الشيء وتمني وقوعه ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم/٢١] .

وقوله تعالى ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾ [مريم/ ٩٦] .

وهو إشارة إلى ما أوقعه الله بينهم من الألفة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال/٦٣] .

والله سبحانه وتعالى هو الغفور الودود ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ . ﴾ [البروج /١٤] ، ﴿ ... إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ . ﴾ [هود/ ٩٠] . (١)

الألفة :

وردت مادتها في القرآن الكريم فيما يخص مرادنا نحو سبع مرات وهي تدور مادتها على انضمام الشيء إلى الشيء ، والأشياء الكثيرة وكل ما ضممته إلى بعضه فقد ألفته تأليفاً . (٢)

قال تعالى : ﴿ ... وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . ﴾ [الأنفال/٦٣].

وقال تعالى : ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ... ﴾ [آل عمران/١٠٣] .

---

(١) وانظر : مادة " ودد " في المفردات ص ٥١٦ .

(٢) معجم مقاييس اللغة : " ألف " ١ / ١٣١ .

الطيبة :

وهي كسبب من أسباب الأنس : تعني الزكاة والطهر ، ومنه : تربة طيبة ، أي : طاهرة ، والطيب خلاف الخبيث ، كما تدل هذه المادة على الأمن وكثرة الخير . (١)

وقد وردت مادة الطيبة في القرآن نحو تسع وأربعين مرة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ [النور /٢٦] .

﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ... ﴾ [آل عمران/ ٣٨] .

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ... ﴾ [الأعراف/٥٨] .

﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ... ﴾ [إبراهيم/ ٢٤] .

﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ... ﴾ الحج / ٢٤] .

﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر/ ٧٣] .

السكن :

وردت مادته في القرآن الكريم نحواً من سبع وستين مرة .

والسكن أصل يدل على خلاف الاضطراب والحركة .

والسكن : الأهل ، وكل ما سكنت إليه من محبوب . (٢)

ومن ذلك قوله تعالى:﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . ﴾ [البقرة/٣٥] .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . ﴾ [الأعراف /١٨٩] .

---

(١) المعجم الوسيط ٦٠٠ .

(٢) ابن فارس " سكن " .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . ﴾ [الروم/٢١] .

اللطف :

وردت مادته في القرآن الكريم نحواً من : ثماني مرات .

وتدور مادته على الرفق وصغر في الشيء .

ومن الأول قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ... ﴾ [الشورى/ ١٩] .

وقوله تعالى : ﴿ ... وَلْيَتَلَطَّفْ ... ﴾[الكهف/ ١٩].

الصداقة : كسبب من أسباب الأنس :

وقد وردت مادته في القرآن نحوا من مائة وخمسين مرة .

ويدور معنى هذه المادة على قوة في الشيء .

والصداقة : مشتقة من الصدق في المودة . [1]

قال تعالى :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة/١٧٧] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة/١١٩] .

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص/٣٤] .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . ﴾ [الحجرات /١٥] .

---

[1] ابن فارس " صدق " ٣ / ٣٣٩ .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر/ ٨] .

الخُلّة :

وردت مادتها في القرآن الكريم نحواً من ثلاث عشرة مرة .

والخُلّة : مأخوذة من تخلل الود للنفس مع المخالطة . (١)

قال تعالى : ﴿ الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف/٦٧] .

الإيثار :

ورد ما يخص موضوعنا منه نحو خمس مرات .

ومعنى الإيثار : التفضل ، ومنه آثرته ، أي : فضلته .

قال تعالى : ﴿ ... وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ... ﴾ [الحشر /٩] .

ومنه : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ... ﴾ [يوسف/ ٩١] . (٢)

التعارف :

وردت مادته في القرآن الكريم نحواً من عشر مرات .

والتعاون : إعانة البعض للبعض . (٣)

ومنه قوله تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة/٢]

وقوله : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ [الكهف/ ٩٥] .

---

(١) المفردات ص ١٥٣ .

(٢) المفردات ص ٩ .

(٣) اللسان " عون " ٤ / ٣١٧٩ .

الأخوة :

وردت مادته حوالي ثنتين وتسعين مرة .

الأخ : هو المشارك لآخر في الولادة من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع ، ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين ، أو في صنعة ، أو في معاملة ، أو في مودة ، أو في غير ذلك من المناسبات . (١)

ومنه قوله تعالى : ﴿ ... إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . ﴾ [الحجر/٤٧] .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ﴾ [الحجرات/ ١٠] .

الصحبة :

وردت مادته في القرآن الكريم نحواً من سبع وتسعين مرة .

الصاد والحاء والباء : أصل واحد يدل على مقارنة شيء ومقاربته ، وكل شيء لاءم شيئاً فقد استصحبه . (٢)

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ... ﴾ [التوبة/ ٤٠] .

وقوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ... ﴾ [لقمان/ ١٥].

وقوله سبحانه : ﴿ ... وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس /١٢] .

وقوله تعالى أيضاً : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ... ﴾ [الواقعة /٢٧] .

الأهل :

ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم نحواً من مائة وست وعشرين مرة .

فأهل الرجل : زوجه ، والتأهل : التزوج، وأهل الرجل أخص الناس به، وأهل البيت : سكانه ، وأهل الإسلام : من يدين به ، وكل شيء أَهْلَ مكاناً فهو آهل وأهلي . (٣)

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف/ ٩٣] .

﴿ فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا ... ﴾ [طـــه/ ١٠] .

---

(١) المفردات ص١٣ .

(٢) ابن فارس ٣ / ٣٣٥ .

(٣) ابن فارس ١٠ / ١٥٠ .

الرحمة :

وردت مادته في القرآن الكريم نحواً من ثلاثمائة وأربعين مرة .

أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة ، إذا رق له وتعطف عليه.

والرحم : علاقة القرابة ، وسميت الأنثى رحماً ؛ لأن منها يكون ما يُرحم ويُرق له من ولد ... .(١)

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ... ﴾ [آل عمران/ ١٥٩] .

الشفقة :

وردت مادتها في القرآن نحواً من إحدى عشرة مرة .

وهي أصل واحد يدل على رقة في الشيء .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء/ ٤٩] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون/ ٥٧] .

ومنه قول أهل التقوى: ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور/ ٢٦] .

الشفاعة :

وردت مادتها في القرآن نحواً من إحدى وثلاثين مرة .

وهي أصل واحد يدل على مقارنة الشيء ، شفع فلان لفلان إذ جاء ثانية ملتمساً مطلبه ومعيناً له .(٢)

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً ... ﴾ [النساء/ ٨٥] .

---

(١) ابن فارس ٢ / ٤٩٨ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ٣ / ٢٠١ .

الاصطفاء :

وردت مادة هذه الكلمة في القرآن نحواً من أربع عشرة مرة .

وأصل الصفا : خلوص الشيء من الشوب ، ومنه : الصفا للحجارة الصافية .

والاصطفاء : تناول صفو الشيء أي أفضل ما فيه . [1]

واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافياً عن الشوب الموجود في غيره ...

ومنه قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ... ﴾ [الحج /٧٥] .

﴿ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾[النمل/ ٥٩] .

الإصلاح :

ورد في القرآن نحو مائة وثمانين مرة .

والصلاح ضد الفساد ، والصلح يختص بإزالة النفار بين الناس .

ومنه قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود /١١٧] .

وفي الصلاح يقول الله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران/١١٤] .

العزة :

وردت مادته في القرآن نحواً من مائة وتسع عشرة مرة .

والعزة حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب ، وقد يمدح بها تارة ، ويذم بها تارة أخرى ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص /٢] .

---

[1] المفردات ص ٢٨٣ .

وعزة الله ورسوله والمؤمنين هي الدائمة الباقية وهي العزة الحقيقية .

ومنه قوله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾[فاطر/١٠] .

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ [المنافقون/ ٨] .

المغفرة :

وردت في القرآن نحواً من مئتين وثلاث وثلاثين مرة .

الغفر : إلباس ما يصونه عن الدنس ، والمغفرة من الله : صون العبد من العذاب .

غفر له : إذا تجافى عنه . (١)

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ... ﴾ [آل عمران/١٣٥] .

﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى/ ٣٧] .

﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا...﴾ [التغابن/ ١٤].

الفرح :

ورد في القرآن نحواً من ثنتين وعشرين مرة .

وهو : انشراح الصدر بلذة عاجلة . (٢)

ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس/ ٥٨] .

النصرة :

وردت مادتها نحواً من مئة واثنتين وأربعين مرة .

النصر : العون ، ونصرة الله للعبد ظاهرة ، ونصرة العبد لله هو نصرته لعباده والقيام بحفظ حدوده ، ورعاية عهوده ، واعتناق أحكامه واجتناب نهيه . (٣)

---

(١) المفردات ص ٣٦٢ .

(٢) السابق ص ٣٧٥ .

(٣) السابق ص ٤٩٥ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا ... ﴾ [الأنفال/ ٧٢] .

﴿ ... فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ... ﴾ [الأعراف/١٥٧] .

الولاء :

وهو يعني : القرب من حيث المكان ، ومن حيث النسبة ، ومن حيث الدين ، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد . [١]

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة/ ٧١] .

العلاقة بين ما ورد في اللغة وما جاء في آي القرآن

إن المتأمل في تضاعيف ما جاء في المعاجم العربية عن الأنس والمتدبر لآي القرآن التي أوردت مادة " الأنس " وما يقاسمها في معناها يجد أن العلاقة بين المعنى اللغوي والآيات في هذا الموضوع علاقة اتحاد تام وترابط كلي .

فالإنسان ــ ومن خلال اسمه ــ يحتاج إلى الأنس الدائم ، فهو لا يستطيع العيش إلا في مجتمع ، هذا المجتمع يعيش على : التعاون ، والتراحم ، والتلاحم ، والحب ، والود ، والشفقة ، والإيثار ، والألفة ، والنصرة ، والسكن ، وصحبة الأهل ، والإصلاح المتراحم ، والولاء والانتماء ، وغير ذلك مما جاء في معنى الأنس في اللغة ، وفي آي القرآن الكريم ، ومن هنا نجد وثيق العلاقة بين الوارد في اللغة ، والمتلو في المصحف .

---

(١) المفردات ص ٥٣٣ .

المبحث الثالث

الزواج وتحقيق الأنس

قضت حكمة الله ــ عز وجل ــ أن تكون الوحدانية له دون سواه ، فقد تنزه سبحانه عن الزوج والولد ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ الإخلاص .

وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ الإسراء [١١١] .

وكل مَنْ دونه ــ سبحانه ــ محتاج إلى المعين ، والنصير ، والشريك ، والشبيه.

قال تعالى :﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الذاريات:٤٩.

أي ومن كل شيء خلق الله ــ عز وجل ــ صنفين ونوعين من ذكر وأنثى، وبر وبحر ، وشمس وقمر ، وحلو ومر ، وسماء وأرض ، وليل ونهار ، ونور وظلمة ، وجن وإنس ، وخير وشر ... (١)

فـ ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يس ٣٦ .

والمتأمل في الأزواج كلها يجد أن الإنسان هو أهم هذه الأزواج ، فهو الذي جعله الله خليفة له في أرضه ، ومن أجله جعل الأزواج كلها مسخرة له .

وقد استأنس آدم أبو البشر ــ عليه السلام ــ بحواء بعد طول وحشة ، وتزاوج بها بعد وحدة ، وظل بنوه على خطوه تزاوجاً ، فكان في المقدمة أصفياء الله ، الأنبياء ــ عليهم السلام ــ الذين تزوجوا ، وكان منهم الذرية ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ... ﴾ الرعد ٣٨ .

---

(١) فتح القدير ١٢٩/٥ .

وهذا رد على منكري الزواج على الأنبياء ، ومنهم خاتمهم المسك سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

ــ أورد الإمام القرطبي : أن اليهود قد عابوا على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ الأزواج ، وعيرته بذلك .

وقالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء ، فأنزل الله هذه الآية .

ــ وهذه الآية تدل على الترغيب في النكاح والحض عليه ، وتنهي عن التبتل ــ وهو ترك النكاح ــ وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية. (١)

ويقول الإمام الألوسي : وفي تكثير نسائه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فوائد جمة ، ولو لم يكن فيه سوى الوقوف على استواء سره وعلنه لكفى . (٢)

وفي الصحيحين :

... وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي (٣)

إذن فالزواج قرآن ، والزواج سنة ، والله تعالى قال : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ النبأ [٨] .

وهذه الآية أفادت أن يكون الذكر زوجاً للأنثى والعكس ، وذلك ليتسنى للبشر أمر التكاثر ، وعمارة الكون ، وتنظيم أمر المعاش ، وتصريف أمر الشهوة بما يرضي الله ــ عز وجل ــ .

---

(١) القرطبي : ٣٢٧/٩ ، والألوسي ١٧٥/١٣ .

(٢) الألوسي ١٧٥/١٣ .

(٣) رواه البخاري كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح رقم ٥٠٦٣ الفتح ١٣٠/١٠ ، ومسلم كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه رقم ١٤٠١ ، ١٧٨/٩ .

يقول ابن عاشور :

" وفي هذه الآية إيماء إلى ما في الخلق من حكمة إيجاد قوة التناسل من اقتران الذكر بالأنثى ، وهو مناط الإيمان إلى الاستدلال على إمكان إعادة الأجساد ، فإن القادر على إيجاد هذا التكوين العجيب ابتداءً بقوة التناسل ، قادر على إيجاد مثله بمثل تلك الدقة أو أدق .

وفيه استدلال على عظيم قدرة الله وحكمته ، وامتنانه على الناس بأن خلقهم ، وأنه خلقهم بحالة تجعل لكل واحد من الصنفين ما يصلح لأن يكون له زوجاً ليحصل التعاون ، والتشاور في الأنس والتنعم . (١)

ـ والقرآن الكريم يثبت أن الكل مكمل للكل ، وبعضنا من بعض ، وهذا ما يؤكد الأنس ويدعمه لسياسة أمور الإنسان .

قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ... ﴾ آل عمران [١٩٥] .

فجملة ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ جملة تقولها العرب وتعني بها : أن شأنهم واحد ، وأمرهم سواء . (٢)

والمعنى : بعضكم من أصل بعض بتقدير مضاف أو بدون تقدير : فالأنثى من الذكر ، والذكر من الأنثى، والجملة جاءت مبينة لسبب انتظام النساء في سلك الدخول مع الرجال في الوعد بالثواب والأحكام والنصرة وغير ذلك.(٣)

ـ ولما كان بعضنا من بعض ـ كما أسلفت الآية الكريمة ، وسهل الخالق سبحانه على يدي نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ طريق الوصول إلى تكامل البعض بالبعض .

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠ / ١٨ ، ١٩ .

(٢) القرطبي ٤/٣٠٩ ، والتحرير والتنوير: ٤/١٧٤ .

(٣) البيضاوي : ٢/١٢٩ ، والآلوسي ٤/١٦٨ .

فقال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ...﴾ [النور ٣٢] .

والأيم : مَنْ لا زوج له ذكراً كان أو أنثى .

" وهذه المخاطبة تدخل في باب الستر والصلاح ، أي : زوِّجوا مَنْ لا زوج له منكم ، فإنه طريق التعفف ، والخطاب للأولياء على الصحيح . (١)

فمن باب التيسير : لم يعترف الإسلام بالفقر كمانع للزواج ، بل وعد صاحبه عند طَرْق باب الزواج والعفة بالغنى إن شاء الله له ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ ... إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .﴾ النور [٣٢] .

والمعنى : " أن الفقر لا يمنع الناكح من إنكاحه ؛ لأن الله ــ عز وجل ــ وعد بالمدد ، فالغنى مأمول من الله للمتزوجين ، موعود به شريطة الصلاح .

وطريق ذلك معلق بالمشيئة ، ثم العمل والكفاح الحلال من أجل رزق أوسع .

أما المشيئة : فالجملة فيها شرط مضمر هو ﴿ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي إن شاء .

فلا يرد أن كثيراً من الفقراء تزوج ، ولم يحصل له الغنى ، ودليل الإضمار قوله تعالى : ﴿ ... وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .﴾ التوبة ٢٨ .

وكونه وارداً في منع الكفار عن الحرم لا يأبى الدلالة . (٢)

وأما العمل : فلغنى الفقير إذا تزوج سبب عادي هو :

مزيد اهتمامه بالكسب ، والجد التام في السعي حيث ابتلي بمن تلزمه نفقتها شرعاً وعرفاً ، وينضم إلى ذلك مساعدة المرأة له ، وإعانتها إياه على أمر دنياه ، وهذا كثير في العرب ، وأهل القرى .

---

(١) القرطبي ١٢/١٣٩ .

(٢) الآلوسي ١٨/١٨٩ .

يقول الآلوسي : " فقد وجدنا فيهم مَنْ تكفيه امرأته أمر معاشه ، ومعاشها بشغلها ، وقد ينضم إلى ذلك حصول أولاد له ، فيقوى له التساعد والتعاضد ، وربما يكون للمرأة أقارب يحصل له منهم الإعانة بسبب مصاهرته إياهم ، ولا فرق بين حال المرأة التي تريد الزوج ، وحال الرجل سالف الذكر . " (١)

فالغنى موعود به للناكح ، كذا الإعانة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ :

" ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عَوْنُهُمْ : الْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ ، وَالْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . " (٢)

وقال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ : أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى ، قال تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... ﴾ الآية .

ويقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : ابتغوا الغنى في النكاح .

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : التمسوا الغنى في النكاح .

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : التمسوا الرزق في النكاح .

وقال أيضاً : رغبهم الله في التزويج ، وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه بالغنى فقال : ﴿ وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى ... ﴾ الآية . (٣)

والغنى كما يكون بالمال ، يكون بكف الإنسان عن الفواحش .

ولكن ما بال العاجز عن النكاح ماذا يصنع في حاله هذا ؟

---

(١) الآلوسي ١٨٩/٨ .

(٢) رواه الترمذي : كتاب فضائل الجهاد ، باب ما جاء في المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله رقم ١٥٧٩ وقال : حديث حسن ، والنسائي كتاب النكاح باب معونة الله للناكح يريد العفاف رقم ٣٢٠٨ ، وغيرهما .

(٣) انظر فيما سبق الطبري ٩٨/١٨ ، والقرطبي ٢٣٩/١٢ ، والآلوسي ١٨٩/١٨ .

قلت : قال الله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... ﴾ [النور/٣٣] .

أي ليطلب العفة عن الحرام كالزنا ونحوه ، مَنْ لا يجد مالاً ، وهو سبب من أسباب النكاح ، وما به تنكح المرأة حتى يرزقهم الله رزقاً يتمكنون بسببه من الزواج ، ولا مانع من الغنى للناكح على كل حال ، فنعم المال الصالح للرجل الصالح .

ـ ومن هنا شرّع نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ عدم التواني عن النكاح عند وجود الباءة لمن بلغ ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ " (١)

فالطريق الوحيد الذي يجمع شطري النفس البشرية هو النكاح الشرعي .

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ... ﴾ النحل: ٧٢ .

ولو تفرسنا لفظ ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ وهو غاية في اللطف والأنس ، لعلمنا أننا عندما نقترن بزوج إنما نضيف إلى أنفسنا جزءاً منها ، فمن أحسن إليه أحسن إلى نفسه هو ، ومَنْ أساء إليه أساء إلى نفسه ذاته .

ومن هنا كانت الزوجة آية من آيات الله ـ عز وجل ـ كونها من أنفسنا حيث يقول عز من قائل :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . ﴾ الروم:٢١ .

والحديث حديث هذه الآية الكريمة :

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ أي ومن دلائل قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ وبديع صنعه أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً .

---

(١) رواه البخاري كتاب الصوم باب الصوم لمن خاف على نفسه العزبة رقم ١٩٠٥ ، ومسلم كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه رقم ١٤٠٠ .

يقول ابن عاشور : " هذه آية فيها عظة وتذكير بنظام الناس العام ، وهو نظام الازدواج وكينونة العائلة ، وأساس التناسل ، وهو نظام عجيب جعله الله مرتكزاً في الجبلة ، لا يشذ عنه إلا الشُذاذ .

وهي آية تنطوي على عدة آيات ، منها :

أن جعل للإنسان ناموس التناسل ، وأن جعل تناسله بالتزاوج ، ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه ، وأن جعل أزواج الإنسان من صنفه ، ولم يجعلها من صنف آخر ؛ لأن التأنس لا يحصل بصنف مخالف ، وأن جعل في ذلك التزاوج أنساً بين الزوجين ، ولم يجعله تزاوجاً عنيفاً أو مهلكاً كتزاوج الضفادع ، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة ، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين فيصبحان بعد التزاوج متحابين ، وأن جعل بينهما رحمة ، فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما ، فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة ولأجل ما ينطوي عليه هذا الدليل ، وما يتبعه من النعم والدلائل جعلت هذه الآية آيات عدة في قوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

ثم قال سبحانه ﴿ لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ : لتميلوا إليها بعد مكابدة العمل وكسب العيش ، والسعي على العيال ليهنأ بيد حانية ، وبسمة فاتنة ، وقبول يفتح أمام الكاد المتعب أبواب الراحة بكل ما تشتمل عليه ، فالسكون هنا مستعار للتأنس وفرح النفس ؛ لأن في ذلك زوال اضطراب الوحشة والكمد ، فمن أجل الرجل خلق الله المرأة ، ومن أجل المرأة كان الرجل ، ومن هنا كانت خصوصية الزواج في المتعة المأجورة المثاب فاعلها ، والتي تأثم ويأثم كل من منعها عند طلبها بلسان الحال أو المقال .

قال الآلوسي :" وللرجال خلق لبضع منهن ــ أي النساء ــ ، قال تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ.﴾ الشعراء:١٦٦.

فأعلم الله النساء أن هذا الموضع خلق منهن للرجال ، فعليها بذله في كل وقت يدعوها الزوج ، فإن منعته فهي ظالمة ، وفي حرج عظيم . (١)

---

(١) الآلوسي ١٤/١٦ .

والآثار في ذلك صحيحة متعاضدة ، ومحلها كتب السنة .

قلت : والأمر كذلك بالنسبة للمرأة ، فلو أنها أرادت زوجها بطريقة أو بأخرى ، وهو لا بأس به ، ولم يبذل جهده في إروائها لكان عليه من الوزر ما لحق بها عند عصيانها إياه ، إذ لا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة .

الغاية الأولى للزواج : السكن ، والألفة ، والتآنس .

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ : مودة : محبة ، ورحمة : باعثة على حسن المعاملة .

" فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها أو لرحمته بها بأن تكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك . (١)

قال ابن عباس : المودة : حب الرجل امرأته .

والرحمة : رحمته إياها أن يصيبها سوء . (٢)

" فالمودة والرحمة من الله ــ عز وجل ــ ، والفرك ــ البغض ــ من الشيطان . (٣)

أما كون خاتمة الآية ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن العلامة الطيبي جدير ببيان : لمَ كانت هذه الفاصلة ودونك ما قاله ــ يرحمه الله ــ :

" أنه لما كان القصد من خلق الأزواج ، والسكون إليها وإلقاء المحبة بين الزوجين ليس مجرد قضاء الشهوة التي يشترك فيها البهائم ، بل تكثير النسل وبقاء نوع المتفكرين الذين يؤديهم الفكر إلى المعرفة والعبادة التي ما خلقت السماوات والأرض إلا لها ناسب كون المتفكرين فاصلة . " (٤)

---

(١) ابن كثير ٦/٢٧٧

(٢) القرطبي ١٤/١٦ .

(٣) الآلوسي ٢١/٣٠ ، ٣١ .

(٤) الآلوسي ٢١/٣١ .

وبعد بيان ما للزواج من أهمية حياتية وكونية وفطرية نطقت الآيات الكريمات بها ، نعرض ما أورده القرطبي منسوباً إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – من أنه كان يقول : " إني لأتزوج المرأة ، مالي منها حاجة ، وأطؤها وما أشتهيها ، قيل له : وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : حبي أن يخرج الله مني من يكاثر به النبي – صلى الله عليه وسلم – النبيين يوم القيامة . "(١)

قلت : في هذا القول من وجهة نظري : نظر فتأمله .

---

(١) القرطبي ٩ /٣٢٧ .

وقفة مع الركائز الداعمة
لدوام الأنس واجتماع الشمل في الزواج

من المعلوم أن الشريعة الإسلامية عندما جعلت الزواج هو الملجأ الوحيد لإنشاء الأسر ، وبقاء النسل المعمر للكون ـ سنّت له من الضوابط الشرعية ما به يد م ولا ينهار ، وذلك بالتزام كل من طرفي الميثاق " الزوج والزوجة " بما عليه من حقوق ، وما عليه من واجبات ، ومَنْ أضاع حقاً ، أو أهمل واجباً فإنما هو يسعى إلى هدم بناء الأسرة ، وتقويض أركانها ، وهذه طائفة من المبادئ العامة في الزواج .

فمن حقوق المرأة :

(١) أن يسمع لها في اختيار زوجها .

(٢) أن تُزوج بكفئها .

(٣) أن ينفق عليها زوجها (طعاماً وشراباً ، وكساء ، ومسكناً ...) فهي خالصة له .

(٤) أن تحصل من زوجها على الذرية مع ما يرافق ذلك من تحصيل المتعة واللذة الحلال .

(٥) أن يكون لها ذمتها المالية الخاصة .

ومن واجباتها :

(١) طاعة الزوج ما لم تؤمر بمعصية .

(٢) أن يجدها أنّى طلبها .

(٣) الرعاية لمال زوجها والمحافظة عليه وعلى أولاده وما هو معلوم بداهة من صيانة عرضها وشرفها .

(٤) أن تكون أهلاً للذرية والتناسل .

وعين ما لها هو عين ما على الزوج ، وعين ما عليها هو من حقوق الزوج والأمر بين الرجل والمرأة تكاملي .

وقد جاءت الآيات التي تتحدث في القرآن عن مثل ما تقدم ، ومن ذلك :

ـ قوله تعالى : ﴿ ... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . ﴾ البقرة: ٢٢٨ .

والآية تثبت أن للمرأة مثل الذي عليها بالمعروف ، وهذا يحتاج إلى مزيد تفصيل .

فالآية جاءت في سياق إعادة سريان الحياة للعلاقة الزوجية ، ومن هنا كان هذا التقعيد الذي مَنْ تَفَهَّمَه لن يدع بيته للانهيار مرة أخرى .

فالآية من الاحتباك ، أي : ولهن على الرجال مثل الذي للرجال عليهن ، فحذف من الأول لدلالة الآخر والعكس .

والملاحظ أن هذه الآية تبرز عناية خاصة بذكر ما للنساء من الحقوق على الرجال ، وتشبيهها بما للرجال على النساء ؛ لأن حقوق الرجال على النساء مشهورة مُسلَّمة من أقدم العصور البشرية ، فأما حقوق النساء فلم تكن مما يلتفت إليه أو كانت متهاوناً بها ، وموكولة إلى مقدار حظوة المرأة عند زوجها حتى جاء الإسلام فأقامها ، وأعظم ما أسست به هو ما جمعته هذه الآية.

ومن الملاحظ أن الظرف " ولهن " قُدِّم لحكمة ، وهي : الاهتمام بالخبر ؛ لأنه من الأخبار التي لا يتوقعها السامعون ، فقُدِّم ليصغى السامعون إلى المسند إليه ، بخلاف ما لو أُخر فقيل : ومثل الذي عليهن لهن بالمعروف .

وفي هذا إعلان لحقوق النساء ، وإعلاء بها ، وإشادة بذكرها ، ومثل ذلك من شأنه أن يُتلقى بالاستغراب ؛ فلذلك كان محل الاهتمام . (١)

ـ والآية تثبت المماثلة بين الرجل والمرأة ، فهل العلاقة بين الرجل والمرأة هي التطابقية الكاملة ؟

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٣٩٦ .

الجواب : المثل قد يكون في جميع الصفات ، وقد يكون في بعضها ، وهنا لا تستقيم المماثلة بين الرجل والمرأة في كل الصفات ، ولا في كل الحقوق والأحوال ؛ وذلك نظراً إلى مقتضى الخلقة ، ومقتضى المقصد من المرأة والرجل ، ومقتضى الشريعة التي خالفت بين كثير من أحوال الرجال والنساء ؛ لذا د ن صرف المماثلة إلى نوع الحقوق على إجمال بينته تفاصيل الشريعة فلا يتوهم أنه إذا وجب على المرأة أن تقم بيت زوجها ، وأن تجهز طعامه أنه يجب عليه مثل ذلك ، كما لا يتوهم أنه كما يجب عليه الإنفاق على امرأته ، أنه يجب على المرأة الإنفاق على زوجها ، بل يكفيها مؤنة الارتزاق ، وكما لا تتزوج عليه بزوج في مدة عصمته ، يجب عليه هو أن يعدل بينها وبين زوجة أخرى حتى لا تحس بهضيمة ، فتكون بمنزلة من لم يتزوج عليها .

فعلى المرأة أن تحسن معاشرة زوجها ، وعلى الرجل مثل ذلك .

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ... ﴾ النساء: ١٩.

وعليها حفظ نفسها عن غيره ممن ليس بزوج ، وعليه مثل ذلك عمن ليست بزوجته ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ (٣١) ﴾ النور .

ـ والرجل راع على أهله ، والمرأة راعية في بيت زوجها .

ـ وللرجل والمرأة الحق بالسوية فيما يخص رضاع صغيرهما ، قال تعالى: ﴿... فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ...﴾ البقرة:٢٣٣ .

وقال تعالى ﴿ ... وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ... ﴾ الطلاق: ٦ .

ـ وكما للرجل الرجعة ، فلهن العشرة بالجميل .

ـ وكما لهم قصرهن عليهم في بيوتهم فلهن ما يزيل الوحشة ويجلب الأنس .

ومرجع ذلك كله إلى نفي الضرر ، وإلى حفظ مقاصد الشريعة من الأمة ، وقد أومأ إليها قوله تعالى : ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ في الآية التي نحن بصددها : ﴿ ... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (١)

قال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : لهن من حسن الصحبة ، والعشرة بالمعروف على أزواجهن مثل الذي عليهن من الطاعة فيما أوجبه عليهن لأزواجهن .

وقال ــ رضي الله عنهما ــ : " إني لأتزين لزوجتي كما احب أن تتزين لي. (٢)

وفي صحيح مسلم في خطبة الوداع يقول رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

" فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . " (٣)

وفيما رواه أبو داود في سننه أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أوصى بالمثلية في الطعام والكسوة والتكريم .

فعن مُعَاوِيَةَ الْقُشَيْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ ؟ قَالَ : أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ أَوْ اكْتَسَبْتَ ، وَلا تَضْرِبِ الْوَجْهَ ، وَلا تُقَبِّحْ وَلا تَهْجُرْ إِلا فِي الْبَيْتِ . (٤)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٣٩٩/٢ ، والكشاف ٤٤٢/١ ، وزادة ٥٥٠/٢ .

(٢) القرطبي ١١٨/٣ .

(٣) رواه مسلم كتاب الحج باب حجة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ رقم ١٢١٨ .

(٤) رواه أبو داود كتاب النكاح باب في حق المرأة على زوجها رقم ٢١٤٢ ، و قَالَ أَبُو دَاوُد : وَلا تُقَبِّحْ أَنْ تَقُولَ قَبَّحَكِ اللَّهُ .

يقول شيخ زادة :

" واعلم أن مقاصد الزوجية لا تتم إلا إذا كان كل واحد من الزوجين مراعياً حق الآخر مصلحاً لأحواله مثل : طلب النسل ، وتربية الولد ، ومعاشرة كل واحد منهما الآخر بالمعروف ، وحفظ المنزل ، وتدبير ما فيه ، وسياسة ما تحت أيديهما ، إلى غير ذلك مما يستحسن شرعاً ، ويليق عادة كل ذلك بالمعروف ، أي : بالوجه الذي لا ينكر في الشرع ، وعادات الناس . " (١)

" فالمعروف " هو مقتضى الفطرة ، والآداب ، والمصالح ، ونفي الإضرار .

وقد جاءت كلمة " بالمعروف " لرفع الجور من حال كل من الرجال والنساء ، فقد حدد الله تعالى لمعاملات النساء حدوداً ، وشرع لهن أحكاماً ، قد أعلنتها على الإجمال هذه الآية العظيمة ، ثم فصلتها الشريعة تفصيلاً . (٢)

وفي جو العدل المطلق ، والإحسان غير المحدود للمرأة ، لا ننسى الدرجة.

هذه الدرجة التي ذكرها مَن خلق الذكر والأنثى في كتابه الكريم ذكراً صريحاً متصلاً بمثلية المرأة للرجل : ﴿ ... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ .

وبتحليل كلمة " رَجُل " ثم ببيان معنى " درجة " وما تحويه ـ نقف على المراد دون إفراط أو تفريط ، أو تشريق أو تغريب .

فالرَّجل سميت رِجْلاً : لقوتها على المشي ، وحمل ما فوقها .

ويقال : رجل بيِّن الرَّجلة : أي : القوة ، وهو أرجَلُ الرَّجلين أي : أقواهما ، وفرس رجيل أي قوي ."

---

(١) زادة ٢/٥٥٠ ، ٥٥١ .

(٢) ابن عاشور ٢/٣٩٩ ، ٤٠٠ .

وارتجل الكلام أي : قوي عليه من غير حاجة فيه إلى فكـرة ورويـة ، وترجّل النهار : قوي ضياؤه . (١)

قلت : والرّجل في بيته يحمل من الأعباء والمشاق ما لا يستطيعه غيره .

ـ أما الدرجة فهي المنزلة الرفيعة ، وأصلها : من درجـت الشـيء إذا طويته ، ومنه الدرجة التي يُرتقي فيها ، وعليها في سلّم ونحوه . (٢)

وصيغت بوزن فَعْلَة من درج إذا انتقل على بطء ، ومهل، يقال:

درج الصبي : إذا ابتدأ في المشي ، وهي هنا استعارة للرفعة المكنى بها عن الزيادة في الفضيلة الحقوقية .

ـ وهذا الجزء من الآية جاء ليثبت تفضيل الأزواج في حقوق معينة على نسائهم لكيلا يُظن أن المساواة المشروعة بقوله تعالى : ﴿ ... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ مطردة .

ولزيادة بيان المراد من قوله " بالمعروف " .

وهذا التفضيل ثابت ـ على الإجمال ـ لكل رجل ، ويظهر أثـر ذلـك التفضيل عند نزول المقتضيات الشرعية ، والعادية .

ـ وقد تقدم الخبر " للرجال " على المبتدأ " درجة " ، وذلك للاهتمام بمـا تفيده اللام من معنى استحقاقهم تلك الدرجة .

وفي هذا الاهتمام مقصدان :

أحدهما : دفع توهم المساواة بين الرجل والمرأة في كل الحقوق.

ثانيهما : تحديد إيثار الرجال على النساء بمقـدار مخصـوص لإبـ ـال إيثارهم المطلق الذي كان متبعاً في الجاهلية . (٣)

---

(١) اللسان مادة : رجل ، والفخر ٩٤/٥ ، والقرطبي ١١٨/٣ .

(٢) اللسان : درج ، والوسيط ، والفخر ٩٤/٥ .

(٣) انظر التحرير والتنوير ٤٠١/٢ ، ٤٠٢ .

إذاً ما هذه الدرجة ؟

الجواب : يقول شيخنا الشنقيطي – رحمه الله – :

" لم يبين القرآن هنا ما هذه الدرجة التي للرجال على النساء ، ولكنه أشار لها في موضع آخر ، وهو قوله تعالى :

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ... ﴾ النساء:٣٤ .

فأشار إلى أن الرجل أفضل من المرأة ؛ وذلك لأن الذكورة شرف ، وكمال الأنوثة نقص خلقي طبيعي ، والخلق كأنه مجمع على ذلك لأن الأنثى يجعل لها جميع الناس أنواع الزينة والحلي ، وذلك إنما هو لجبر النقص الخلقي الطبيعي الذي هو الأنوثة ، بخلاف الذكر فجمال ذكورته يكفيه عن الحلي ونحوه.

وقد أشار تعالى إلى نقص المرأة ، وضعفها الخلقيين الطبيعيين بقوله :

﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ . ﴾ الزخرف:٨ .

لأن نشأتها في الحلية دليل على نقصها المراد جبره ، والتغطية عليه بالحلي ، كما قال الشاعر :

وما الحلي إلا زينة من نقيصة ... يتمم من حسن إذا الحسن قصرا

وأما إذا كان الجمال موفراً ... كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا

ولأن عدم إبانتها في الخصام إذا ظلمت دليل على الضعف الخلقي ، كما قال الشاعر :

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له ... ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب

فلم يعتذر عذر البريء ولم تزل ... به سكتة حتى يقال مريب

ولا عبرة بنوادر النساء ؛ لأن النادر لا حكم له .

فالدرجة للرجال حاصلة بالإنفاق ، ومضاعفة الإرث ، وكون الطلاق بيد الرجل دون إذن المرأة .

قال تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ... ﴾ البقرة: ٢٢٣ ؛ لأن مَنْ عرف أن حقله غير مناسب للزراعة لا ينبغي أن يرغم على الازدراع في حقل لا يناسب الزراعة ، ويوضح هذا المعنى : أن آلة الازدراع بيد الرجل ، فلو أكره على البقاء مع من لا حاجة له فيها حتى ترضى بذلك ، فإنها إن أرادت أن تجامعه لا يقوم بمهامه في هذا الشأن ، فلا يقدر على تحصيل النسل منه الذي هو أعظم الغرض من النكاح بخلاف الرجل ؛ فإنه يستزرعها ولو كانت كارهة إن شاء الله تعالى له ذلك . (١)

ويقول ابن عاشور ــ طيب الله ثراه ــ :

" وهذه الدرجة اقتضاها ما أودعه الله في صنف الرجال من زيادة القوة العقلية ، والدينية ، والبدنية ، من الإذن بتعدد الزوجات للرجل الواحد لزيادة القوة الجنمية ، ووفرة عدد الإناث في مواليد البشر ، ومن جعل الطلاق بيد الرجل دون المرأة ، والمراجعة في العدة كذلك ، وذلك اقتضاء التزيد في القوة العقلية ، وصدق التأمل ، وكذلك جعل المرجع في اختلاف الزوجين إلى رأي الزوج في شئون المنزل ، وبه تؤسس العائلة ؛ ولأنه مظنة الصواب غالباً ، والتفضيل في الإرث لفرط الحاجة إلى المال ، ووجوب الإنفاق على الزوجة ، والأولاد والدية والقيام بالمصالح . (٢)

ويقول ابن العربي : " ولا يخفى على لبيب فضل الرجال على النساء ، ولو لم يكن إلا أن المرأة خلقت من الرجل فهو أصلها ، وله أن يمنعها من التصرف إلا بإذنه ، فلا تصوم إلا بإذنه ، ولا تحج إلا معه .

وقال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : الدرجة : إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة والتوسع للنساء في المال والخُلق ، أي : أن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه ... وهذا قول حسن بارع . (٣)

---

(١) أضواء البيان ١/١٢٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٢/٤٠٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/١٨٨ ، والقرطبي ٣/١١٨ ، ١١٩ .

ويعدد الشيخ زادة مناط هذه الدرجة فيقول :

" درجة النبوة مختصة بالرجال ، كذا الإمامة في الصلاة ، وهي الصغرى والإمامة الكبرى ولاية النكاح ، وإقامة الشعائر كالأذان ، والإقامة ، والخطبة، والشهادة ، فلا شهادة للنساء في الحدود ، والقصاص ، كذا النفقة ، ووجوب الجهاد والجمعة ونحوها من صلاة العيدين ، والخسوف . (١)

وكذا : العقل ، والحزم ، والعزم ، والقوة ، والفروسية ، والاعتكاف ، والقصاص ، والشهادة في الحدود ، وعدد الأزواج ، وإليهم الأنساب ... " (٢)

ـ كذا القوامة التي هي قيام الرجل على شأن زوجه وذويه بما يصلحهم ؛ لأن شأن الذي يهتم بالأمر ، ويعتني به أن يقف ليدبر أمره .

النهي عن تمني هذه الدرجة :

ولقد تمنى النساء أن يستوين مع الرجال في الميراث ، والغزو ، فكان قوله تعالى :

﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً . ﴾ النساء:٣٢ .

روى الترمذي وأحمد عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ـ رضي الله عنها ـ أَنَّهَا قَالَتْ : يَغْزُو الرِّجَالُ وَلا تَغْزُو النِّسَاءُ ، وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ... ﴾ الآية (٣)

وقال عطاء بن أبي رباح : نزلت في النهي عن تمني ما لفلان ، وفي تمني النساء أن يكن رجالاً فيغزون .

---

(١) حاشية زادة ٣/٢١٤ .

(٢) الكشاف ٢/٦٧ .

(٣) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة النساء رقم ٢٩٤٨ ، وأحمد عن أم سلمة رقم ٢٦١٩٦ .

وقال ابن عباس : لا يتمنى الرجل فيقول : ليت ، لو أن لي مال فلان وأهله ، فنهى الله عن ذلك ، ولكن ليسأل الله من فضله .

والآية صريحة في النهي عن تمني عين النعمة ، أما مثلها فلا .

والآية تثبت أن الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها للمرأة والرجل على السواء .

قال ابن عباس : نهى الله ـ عز وجل ـ عن التمني على هذا الوجه لما فيه من دواعي الحسد ؛ ولأن الله تعالى أعلم بمصالحنا منا . (١)

وقد عالج مولانا سبحانه هذه القضية علاجاً ربانياً حيث أمرنا أن نسأله من فضله العظيم ، فهو صاحب الخزائن التي لا تفاد لها .

قال سفيان بن عيينة : سلوا الله من فضله ، فإن الله يحب أن يُسأل ، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج . (٢)

والقوامة التي يتمنى البعض هدمها في الرجل ، والتي نشأت ، وتنشأ بسببها الصراعات على اختلاف مسمياتها هي في الحقيقة خدمة للمرأة ، ورعاية لمصالحها ، وسهر على راحتها ، ولكن يبدو أن القوم لا يكادون يفقهون حديثاً.

فالتفضيل هو للمزايا الجبلية التي تقتضي حاجة المرأة إلى الرجل في الذب عنها وحراستها لبقاء ذاتها ، وقد ظهرت آثار ذلك على مر العصور والأجيال وإن كانت تقوى وتضعف . (٣)

---

(١) ابن كثير ٢٨٧/١ .

(٢) ابن كثير ٢٨٧/٢ ، والقرطبي ١٥٨/٥ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٦٢/٤ .

المبحث الرابع
الذرية الصالحة مجلبة للأنس

من مقاصد الزواج طلب الذرية ، والذرية هي أنس الحياة ، وبهجة الدنيا وزينتها ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً . ﴾ الكهف:٤٦ .

ففي المال جمال ونفع ، وفي البنين قوة ودفع ، فصارا زينة الحياة الدنيا ، فالإسلام لا ينهي عن التمتع بالزينة في حدود الطيبات ، ولكنه يعطيها القيمة التي تستحقها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد ، والمعوّل عليه هنا ألا نزن الناس بهما ، ولا نقدّر على أساسهما الحياة ، وإنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات ، فالممنوع الذي من أجله زيلت الآية هو الافتخار والتعالي بالمال أو البنين أو غيرهما ، فالمال إلى ذهاب ، والنساء اليوم معك ، وغداً مع غيرك ، والسلطان يكون اليوم لك ، وغداً لغيرك . (١)

والله سبحانه هو الذي زين لنا حب البنين ضمن ما زين للنفس البشرية ، قال تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . ﴾ آل عمران:١٤ .

ولئن خصت الآية البنين دون البنات تنزيلاً للواقع ، فإن هذا لا يمنع أن الفطر لما استقامت على هدي القرآن أصبحت مشتاقة لكلا الجنسين : البنين والبنات ، مزدانة بالبنت والولد معاً .

---

(١) في هذا المعنى انظر: الآلوسي ١٥/٣٠٠ ، والقرطبي ١٠/٤١٣ ، والظلال ٤/٢٢٧٢ .

الأنبياء يطلبون الذرية من الله ـ عز وجل ـ :

ويجدر بنا أن نذكر أن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ قد طلبوا من ربهم الذرية ، فهذا إبراهيم ـ عليه السلام .. ، وذاك زكريا ، وكذا أخوه داود ـ عليه السلام ـ ، ومن قبل أبوهم آدم ـ عليه السلام ـ .

آدم ـ عليه السلام ـ يطلب الذرية :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . ﴾ الأعراف:١٨٩ .

فآدم وحواء دعوا الله قائلين : لئن رزقتنا ولداً صالحاً سوياً الخلقة لنشكرنك على نعمائك ، وقد استجاب الله لهما .

خليل الرحمن يطلب الذرية :

قال تعالى في حق إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾ الصافات .

وقال جل ثناؤه في موضع آخر : ﴿ ... وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾ العنكبوت .

وفي موضع آخر : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيّاً . ﴾ مريم :٤٩ .

وفي موضع آخر : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ هود .

وفي موضع آخر : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ . ﴾ الذاريات: ٢٨.

وفي سورة الأنبياء :﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ(٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)﴾

لما فارق إبرهيم ــ عليه السلام ــ : أباه وقومه الكفرة ذاهباً إلى الشام أو مصر دعا ربه مؤنساً يؤنس وحشته ، ويبدد وحدته ويعوضه عن قومه وعشيرته الذين فارقهم ، فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي : بعض الصالحين يعينني على الدعوة ، والطاعة ، ويؤنسني في الغربة ، ويمنع عني الوحشة التي خلفها اعتزال القوم ، والتقدير ولداً من الصالحين ، وحذف لدلالة الهبة عليه . (١)

والمشهور أن أول ما وهب له ــ عليه السلام ــ من الأولاد " إسماعيل " ــ عليه السلام ــ لقوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ الصافات : ١٠١ ، وكان من هاجر ، وأما سارة فحملت بعد ذلك بإسحاق ــ عليه السلام ــ فلما كبر ولد له يعقوب . (٢)

وبالاتفاق المسلمين فإن أول ولد بشر به إبراهيم هو إسماعيل . (٣)

وبالولد فُسِّر الأجر الدنيوي الذي أعطاه الله خليله إبراهيم في قوله تعالى ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ (٤)

---

(١) الآلوسي ١٣٣/٢٣ .
(٢) الآلوسي ١٧٠/١٦ .
(٣) ابن كثير ٢١/٧ .
(٤) قاله الطبري ٩٢/٢٠ .